



أزمة القيم..... (تتمة)

الحصين وقلعته الشامخة التي تدفع عنه غوائل الغزاة المعتدين، ذلك بان التجرد منها يجعله عاري الظهر مستباح الجانب، وهذه بعض القيم التي نالها ما نالها من تازم واذى، مما كشفت عنه رواية كشف المحجوب:

● 1- قيمة الحياة :

تكاد قيمة الحياة تشكل أبرز القيم المستهدفة من قبل دعاة الشر وخصوم الفضيلة، ممن يتحركون تحت لافتات شتى، من قبيل الحداثة والعصرية والتقدم والتطور وما شابه ذلك من أسماء، لأن هؤلاء الأديعاء، يدركون أن الحياة هو الصخرة الصماء التي تتكسر على جنباتها جميع محاولات المسخ والتدجين، فإذا نجحوا في تفتيتها انفتحت للشر بوابة كبرى، بسبب تحطم جهاز المناعة الممتاز في الفرد والمجتمع، وهذا هو مدلول قول الرسول ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، ورواية كشف المحجوب، انطلاقاً من إدراكها العميق لهذه الحقيقة، تعرض لمظاهر أزمة قيمة الحياة في مساحات عدة، وعبر سياقات شتى، تتبدى من خلالها الأعراض وهي تنتهك وتمرغ في أجواء موبوءة منقنة، تخبر الغثيان، وتغلي منها دماء الغيرة. إن العفة مهددة بأن تصبح عملة غريبة نادرة في دنيا الناس، والعفة أخت الحياة أو سليلته.

يقول الراوي وهو يصف مشهداً من مشاهد الغواية والسوء: «هذه أغصان الأجساد المنتنة تفوح روائحها الآن، فيختنق المكان، تتلوى في عنف الحمى، هائجة في جنون الشبق، يسيل العرق الأسود على الصلصال المختمر، فتفور رائحة العلق المسنون، وترفع الحمير رؤوسها بالنهيق، ثم تقضم- في شره مجنون- الفاكهة الحرام من هنا وهناك» (ص: 16).

ويقول في سياق آخر يصف مشهداً ساقته إليه الأقدار بحكم النشاط النقابي: في قاعة ممتدة مواعدها وأصواتها الرقراقة بالوان شتى.. كل شيء فيها يميل إلى الإغراء الحالم: الألوان الفاترة الساحرة، الموسيقى الهامسة الأتمة، الستائر الشفافة المتدللة صفائرها في دلال، اللوحات المطلة من خلف غوايتها تناديك من هنا وهناك.. جلست كالطير الغريب مبهوتا، أنظر إلى الفاكهة العارية في مجون، والشراب الضاحك في استهتار.. قالت لي بعدما أودعتني سجنها الساحر- أرجو أن تنتظر لحظة.. بعد قليل سيلتحق أضياف السهرة... (ص: 81). ويقول في سياق آخر عن سيدة النادي:

...ثم أشعلت سيجارتها الأمريكية، ونفخت في كبرياء.. فوجدتها فرصة أخرى للهروب (أي من ملاحقتها له بالأسئلة الملحة عن موضوع الزواج)، فقلت بحنو متكلف:

- السيارة يا أستاذة؟ ألا تعلمين؟ ردت في الحال بكلمات جاهزة، كأنها كانت تنتظر التعليق:

- أنا أدخن، إذن أنا موجودة (ص: 50) وما إلى ذلك من المشاهد التي تفوح منها رائحة الصفاقة وسوء الأدب وقلة الحياة بل عدمه، الذي تتحول معه تجمعات القوم ونواديبهم إلى ما يشبه حضائر الخنازير. والخطورة كل الخطورة أن تتوسع رقعة الانسلاخ من إحدى أعظم شعب الإيمان: الحياة، فتتحمم الصفاقة الأحياء والمداسر والبيوت، فتنتجع بها النفوس، فتتحلل من كل المعايير والأعراف، وتتكرر لكل المقدسات والحرمانات، وللأسف الشديد، إن الحرب الضروس على القيم تتذرع لتوسيع لهيبها، باعنى الوسائل والتقنيات، وهذا يفترض- لعمرى- استخدام نفس الأسلحة، إضافة إلى الامتلاء بمنطق الحق واليقين فيه، وفي معية الله ونصره، لضمان العقاب والغلبة.

● 2- قيمة الوفاء:

واضح ما يشد قيمة الوفاء إلى قيمة الحياة من صلة الرحم والقربى، فإذا رحل الحياة، تبعه الوفاء، وسائر الفضائل

والأخلاق. يتحدث المحجوب عن قيمة الوفاء وما نالها من إجحاف واستهتار، عندما هام على وجهه، يقطع المسافات الطوال، بحثاً عن سيدة البستان التي استأثرت بأول جملة في الرواية، شكلت أحد خيوطها الذهبية وأبرز مفاتيح عالمها العميق الغور الفسيح الأرجاء: لم أهدئ إليها، عشر سنوات مرت، وأنا أبحت جاهداً.. عشر سنوات كاملات وأنا الهث ولكن دون جدوى.. (ص: 7) لقد أصيب بصعقة مهولة عندما وصل إلى ديار سيدة البستان، المجلة برداء البراءة والحياة، فأجيب عن سؤاله عن أهلها جواباً مخيباً للآمال:

- لقد رحلوا...

من جزع:

- ماذا تقول؟

- استغنت القبيلة عن إمامة والدها بعدما شاخ، ولم يعد يسمع بالقراءة جيداً، وشارطوا شباباً من القرية المجاورة، أتم حفظ القرآن والمتون.

واحسست بالموت تقتحمني حوافره بعنف. لا أذكر أنني شعرت برغبة حارة في الكساء مثل تلك اللحظة.. قلت جاهداً قبل أن يذرعني الاختناق:

- وهي؟

أجاب بصوت كأنه طارق من الجن، أو أنه هاتف من الآخرة:

- طبعاً معي.. (...)

- وأين حطوا؟

- لست أدري، ولا أحد من أهل القرية يدري.. قالوا: رحلوا بحثاً عن الرزق.. قيل: في جنوب الجنوب، وقيل: بل هناك في الغرب، وذكر الناس عجباً، قالوا: سكنوا في صحفة، ثم يتابع المحجوب عند هذه اللحظة، وقد بلغ به الغضب والعجب مداً:

واستدرت إلى الحمار بقوة المسكون، وأخذت بأذنيه الطويلتين ثم صرخت به: أي قبيلة بلهأه هاته التي نصبتك شيخاً عليها يا حمار؟ كيف تقر صرف الفقيه عن الإمامة، وقد أمضى كل عمره ههنا سيداً ومعلماً؟ أي ظلم هذا الذي تمارسون وأي دمار؟ أهكذا في آخر عمره وهمه تمضون لإلقاء إلى الضياع في المجهول، كما يمضي السكران ورقة الطلاق؟.. وهي؟.. هي يا حمار ماذا جنت حتى تجلوها إجلاء اليهود عن قريتها ومسقط رأسها؟.. ويلكم، أي صلاة- بعد ذلك- بقيت لكم في الحسنات، وأي دين؟ (ص: 101).

هكذا بأسلوب بديع وعبارات موحية غنية بالمعاني والدلالات، يعبر عن ضياع قيمة الوفاء، في جميع مستوياتها وأبعادها. ومن فرط هول الصدمة يتجه بذاته إلى وحوش البراري: يا ضياع هلمي إلى ثانية.. هاأنذا أدخل مقام التيه والشرود... (ص: 101).

غير أن الوفاء إذا كان من ضحايا العصر على مستوى القيم لم يكن لينضب له معين، ما دام في المجتمع نماذج على شاكلة المحجوب ترعى الجميل وتتحدى بحلية الوفاء، يقول المحجوب بعد أن ووجه بذلك الواقع القاسي الأليم:

إن كل خطو يضرب نحو منازل الأحبة خطبه قريب. (ص: 102-101). وذلك بعد رحلة شاقة بحثاً عنهم وتعبيراً عن الوفاء لهم...

وهذا مشهد آخر من مشاهد العرفان والوفاء، طالما استوحشت من فقدائه بقع شاسعة من مجتمعاتنا التي قلدها الله بوسام القيم، فلم ترع أمانته حق رعايته. يقول المحجوب، وقد احتضنته القرية التي كان بها الفقيه الإمام: «كان الغبار بباحة القرية يشكل ملحمة عنيقة في الفضاء، إذ شق المؤذن المساء بصوته الرفيع، من غير استعانة بمكبر.. صوت، وذكرني ذلك بالفقيه الإمام. لست أدري لم تذكرته الآن بشيء من الحنين؟ وقررت أن أراه في زيارة خاصة إكراماً له، فمهما يكن من أمر فهو الذي علمني الأحرف الأولى للقراءة التي كان منها كل شأني... (ص: 54).

● 3- قيمة الرجولة:

الرجولة نفسها كقيمة عليا يمجدها

الإسلام ويعلي شأنها، باعتبارها من مقومات المجتمع السوي السليم، والحضارة الراشدة، تنعيتها الرواية وترثي لحالها، فالواقف التي تعرض لها بخصوص هذا الجانب، تظهر الرجال في وضع كسيف يثير الإشفاق بله الاشمزاز. إن المرأة تبسط قبضتها وتفرض سلطانها على الرجال بكل عنجهية وكبرياء، حتى في المؤسسات التي تكون فيها مرؤوسة على صعيد السلم الإداري. يقول المحجوب في سياق حوار مع صديقه علي تناول سكرتيرة المدير بنادي الموظفين: «كل التصرفات تؤكد لي أنها هي.. هي بلا نزاع: مرؤوسة شكلاً في الإدارة، رئيسة فعلاً في النادي،

- وكيف يركع لها الرئيس بهذا الذل أمام الجميع، ويوسع لها مكان الصدارة؟

- ألم أقل لك إنها سيدة النادي، فالجميع يعلم هذا.. ذلك شرط الرضا إن كنت من العالمين. (ص: 16).

والرواية تزخر بمواقف ومشاهد عديدة، تكشف عن هذه الظاهرة المرضية التي تتمثل في انقلاب الموازين، في العلاقة بين الرجال والنساء، ومن ثم في الوظائف والمهام المنوطة بأولئك وأولئك. يعبر المحجوب- وهو يصارع في التصدي للمبطلين لإبراز ما يعتقد حقا ونسف ما يتبجحون به من أباطيل، كل ذلك ضمن هالة من الاعتزاز، وبأساليب تلجأ أحيانا إلى التبيكيت والسخرية اللاذعة التي تؤدي وظلفتها في الإقناع والإفهام.

في حوار مع أحد الرعماء النقابيين، ينتمي في نفس الوقت لجمعية نسوية ذات عجاج وأزبن ويرفع لواء الدفاع عن المرأة وحقوقها بالمفهوم الحدائي، قال المحجوب: «المرأة عندي لا تصلح لمهمة رجولية» (ص: 72).

(...)- «هاه لا تصلح لمهمة رجولية؟ وما هي المهام الرجولية في نظرك؟»

- كل شيء فيه ريادة أو قيادة، أو نضال أو قتال وقس..

- أنت تعترف بهذا كله إذن؟

يضيف المحجوب قائلاً: قلت وأنا أتابعه في نصب شركه الوهمي:

- نعم وزيادة، هذا رأيي أقوله في كل مكان.

- ولأي شيء تصلح المرأة إذن؟

- (...)- نظرت إليه باحتقار وهو رازح أمامها مثل حارس الخمارة، فأرسلت صاعقتي:

- نعم يمكنها أن تصنع أشياء كثيرة،

أنت تعرفها جيداً: مثلاً يمكن أن تكون راقصة، أو موديلاً جسدياً للتصوير الفتغرافي، أو مادة سينمائية مشهية، أو لقطعة إشهارية حية لشيء ميت، أو بضاعة معروضة في علبة ليل، أو مصرفاً اقتصادياً لتسويق أدوات النقيين، أو خطوات متكسرة لعرض آخر موضحة الأزياء، أو فناً إغرائياً يتبارى لتحطيم أرقام قياسية، في مسابقات ملكات الجمال، أو مصرفاً للزائد الشهواني رهن إشارة المرتزقة، تسلية لهم عن المصير المتوقع، أو مخدراً سياسياً لمعالجة المشاكل المستعصية على المخابرات، أو غواية صارخة في الشارع لمحاربة النظر الديني، أو ديكوراً لتزيين المكان، وترطيب أجواء العمل.. أعني: سكرتيرة.. أو.. (ص: 72-74 بتصرف).

● 4- قيمة المواطنة:

قيمة المواطنة من القيم التي طالما تغنى بها السياسيون والمثقفون، ورفعوا شعارها، وحرصوا أشد الحرص على إظهار استشعار القداسة والتبجيل إزاءها. ولم يفت الدكتور فريد الأنصاري أن يكشف سرها للعيان، ويدل على زيف من رفعا شعارها على سبيل المتاجرة والنفاق والتدجيل، بادلة ساطعة، لا تخفى على أحد. لقد أبرز المحجوب في كشفه الصارم، أن هؤلاء الذين تعرضهم وسائل الإعلام المنتفضة إلى أنهم حملة لواء الثقافة والفكر، وطليعة النضال من أجل الوطن، كلهم سقطوا في مستنقع الخيانة والولاء لإسرائيل. لنستمع إلى شهادة من سقطت صريحة في أحبولة المافيا الرهيبة التي يتولى كبرها

اليهودي الذي يتقن فن المكر والاحتيايل: إنهم الآن كما ترى يتهافتون ويتسابقون نحو (تل أبيب) يعبرون عن حسن نيتهم، ومسالمتهم وولائهم، كل بطريقته الخاصة: كاهن المسرح، ودجال الرواية، وسادن الشعر، ومخرج أفلام الدعارة، ثم مرتزقة الصحافة والتلفزيون، هاهم كما تعرفهم واحداً واحداً.. يسقطون كما تسقط الطينة اليابسة في بركة النجاسة فتذوب ذراتها هناك إلى الأبد (ص: 119).

ثالثاً: معاول هدم القيم أو تأزيمها:

معاول هدم القيم وتأزيمها متعددة، وهي على تفاوتها في درجة الخطورة، تتساند فيما بينها، وأبرزها وأشدها مكرًا ودهاء:

● 1- حركات اليهود التي تتسلل إلى كل المنافذ وتغشى كل محفل، وتتزيى بكل الأزياء الجذابة والأسماء الخلابية، بل إنها لتركب حتى متن العناوين ذات الحمولة الأصيلية، كما هو الأمر بالنسبة لاتخاذ عنوان: البر والإحسان، اسماً لإحدى الجمعيات المشبوهة، بل الضالعة في الإفساد.

● 2- الحركات اليسارية:

لقد أبرز المحجوب في كشفه عبر مواقع عدة، دور اليسار الذي تلغى باقنعة، وتسربل بسرابيل وتلون بالوان، ولكنها كلها بطلت وتمزقت، فبانت عوراتها وعوارها، وتأكد أن جل فصائلها على الأقل قد دخلت جحر ضب الحركات الماسونية الصهيونية، وقد سبقت الإشارة إلى بعض الحقائق المتصلة بهذا مما أوردته الرواية.

● 3- حركة الفرانكفونية:

أصبح من الواضح الجلي لكل ذي عينين، مدى ما الحقته الفرانكفونية من خسائر فادحة بالمجتمعات الإسلامية على مستوى الهوية وما يرتبط بها من قيم. فمن المعلوم، أن من أهم العناصر التي تتشكل فيها تلك القيم، المنظومة التعليمية، التي من أبرز مقوماتها اللغة.

تقول (1) سيدة النقابة، إحدى شخصيات الرواية الأساسية مخاطبة المحجوب في أحد سياقاتها: «آتم لا تنس، زوجي أستاذ للغة الفرنسية رفيع المستوى كما ذكرت لك - والفرنسية يا صديقي العزيز طريقة حياة، قبل أن تكون لغة، وهو كاتب ليس بالمغمور، ربما يسوق له الحظ غدا جائزة الجونكور، إذن فهو ينظر للقيم ويصنعها، وليس في حاجة إلى أن تعلمه بعض دروسها البالية» (ص: 97).

رابعاً: تبشير المحجوب بانتصار القيم

الرفيعة:

إن قارئ رواية كشف المحجوب بشعور رسالي وحاسة مرهفة، وتجواب عميق، لا بد أن يعتصره الألم، ويلفه الحزن والأسى، على مجتمع تناوشته سهام الشياطين من السفلة أبناء الحرام، فهو ينزف باستمرار، ولكن الرواية التي ترقل في ثوب قشيب من التعبير الجميل والأدب الرفيع، توحى في مختلف سياقاتها وفصولها بحنمة انتصار الخير على الشر، والفضيلة على الرذيلة، وتلقي في روع من يحملون هم الأديب الكبير فريد الأنصاري رحمه الله، أن ظلام الطغيان والفجور منقشع لا محالة، وأن كتيبة القيم الرفيعة لا بد منتصرة وظاهرة.

يوحى بذلك ثبات المحجوب على المبدأ، الذي لا تزحزحه الجبال، وانغماره في المعمة موقناً بالنصر، مهما ادلهمت الخطوب، وكبر المكر، وتضافرت أيدي الشياطين والأفلاك والمنافقين.

واترك المقاطع الأخرى الدالة على يقين المحجوب في انبلاج الفجر للقارئ ليقف عليها بنفسه ويلمس فيها كبرياء الحق، ولذة اليقين. رحم الله فقيد الدعوة والفكر والأدب، فقد كان مجاهداً على أكثر من جبهة، وكان شاهداً على عصره ومجتمعه، وأدخله الفردوس الأعلى أمين

1 - الفقرة التي تمتد من هذه الكلمة إلى نهاية الدراسة كتبت بعد وفاة الأديب فريد الأنصاري رحمه الله، وما قبلها كتب قبلها بسنوات.